العامل الاقتصادي في التاريخ

خلاصة مذهب كارل ماركس

ماركس : لا تسرع يا هر وتزل . ولماذا تكتفي بذكر « البيئة الجغرافية » ؟ وما يمنع تعيين القامة بحكم الغذاء كما تعيّن بحكم الاقليم او السلالة ؟ فقد راعني ان بلغ البحث هذا الحد ولم تذكروا العامل الاقتصادي في تفسير التاريخ

ڤولتير [لاناطول فرنس] : من هذا الاسود العارضين — اناطول [لوتير] : هو سقراط الفكر السكرية « كارل ماركس » . وقد الّف كتاباً هائلاً ، برهن فيه على ان القوي يهب الضعيف—ڤولتير : اكتشاف جديد حقّاً ! أفلا يخبرنا كيف يمنع التعدي ؟

اناطول : بقيام الضعفاء وتغلبهم على القوي—ڤولتير [لماركس] : ما هي نظريتك ؟

ماركس : لا اعرف لنظرية ابسط منها ، وهي : « العامل الاساسي في التاريخ ، في كل زمن ، هو العامل الاقتصادي . فطرائق الانتاج والتوزيع ، وقسمة الثروة واستهلاكها وعلاقة العامل بمستخدمه ، والحرب بين طبقات الاغنياء والفقراء—هذه هي الشؤون التي تعين في النهاية ، كل وجوه الحياة — دينية وادبية وفلسفية وعلمية واخلاقية وفنية . فشؤون الانتاج هي نسيج المجتمع الاقتصادي وهي الاسّ الصحيح الذي عليه يشاد البناء الاعلى شرعيًّا وسياسيًّا ، واليها تنسب صور الشعور الاجتماعي المقرّرة

ڤولتير : هذه صورة مجرّدة فاكاد اصاب بصداع منها فهلاّ زدتنا ايضاحاً

ماركس : حسن جدًّا سأفسّر تاريخ الانسانية باجمعه ، من وجهة مذهبي

اناطول : واني لواثق انك تذكر حكايتي عن الملك والمؤرخين

ماركس : اولاً : لا اقسم التاريخ الى قديم ومتوسط وحديث . فذلك تقسيم الاجيال الوسطى . بل اقسمه الى : عصر المراعي وعصر الصيد : عصر الزراعة : وعصر الصناعة اليدوية : وعصر الصناعة الآلية . فالحوادث العظمى هي اقتصادية لا سياسية هي الثورة الزراعية — الانتقال من الصيد الى الحراثة—والثورة الصناعية—الانتقال من الصناعة اليدوية الى نظام المعامل لا معركة مراثون ، او معركة بوادبوس قيصر ، او الثورة الفرنسية

ڤولتير : يعني صور تغيّر الثقافة والثراء عصراً فعصراً

ماركس : وعلاوة على ذلك أن العوامل الاقتصادية هي التي تعين نهوض الامبراطوريات وسقوطها . اما الاحوال الاخلاقية والاجتماعية والسياسية فتأثيرها ضئيل في ذلك . واما التهتك والترف والتهذيب فنتائج لا اسباب . وتحت كل شيء طيبة التربة ، هل هي تصلح للحراثة ، او للمرعى والصيد فقط ؟ وهل فيها معادن نافعة ؟ فقد صارت مصر قوية بسبب حديدها ، وبريطانيا قديماً ، بسبب تصديرها ، وحديثاً ، بسبب فحومانها وحديدها . وقد اضعف اثينا نفاد مناجم الفضة ، وشدّد ذهبُ مكدونيا سواعدَ فيليب والاسكندر . وحاربت رومية قرطجنة بسبب مناجم اسبانيا الفضية ، وانحطت لما فقدت اراضيها خصبها

اناطول : لا اعرف الاّ قليلاً من التاريخ والفلسفة والآداب وكلها عديمة النفع . على اني استطيع ان اظاهرك بما عرفته من حروب عصري الخاص . فقد نشبت كلها بسبب مصادر الثروة الطبيعية ، او انتهاز الفرص الصناعية في البلدان الاجنبية

ماركس : ذكراً فذكرتَ « انتهاز الفرص الصناعية » ، فهذه ايضاً كان لها شأن خطير في التاريخ . لماذا حارب اليونانيون طروادة ؟ ألاجل امرأة خليعة ؟ الامر بعيد عن ذلك . واذا كانت « هيلانة » قد وجدت حقاً ، فانها لم تكن الاّ غطاء لستر الاغراض الاقتصادية . كان اليونانيون يرمون الى اقصاء منافسيهم ، الفينيقيين وحلفائهم ، عن مدينة تسود الطريق البحرية الى اسيا — وليم جيمس : افلم يسيّر وجه هيلانة الجميل الف سفينة الى الحرب ؟

ماركس : كلاّ ، على ما اعلم . وانت تعلم طبعاً ان « مسكليس » بنى الاسطول لدفع « زركسيس » فصار قاعدة لقوة اثينا التجارية في القرن الخامس ق . م . ومكّنتها اموال المعاهدة « الدبلية » من تزيين الاكروبلس بالهياكل . فالذهب المسروق انشأ هذا الفنّ المكمّل . واكثر الصور التي اشتهرت بالفن تلا حشد الثروة الوطنية . ولكن اثينا اخطأت باعتمادها على الطعام الوارد من الخارج . فكل ما كان على سبرطا لقهرها انما كان حصرها لمنع الوارد عنها . فجاعت اثينا ، وسلمت . ولم تنهض بعد ذلك . ثمّ لاحظ كيف حال استعباد الصناع الاثينيين دون الابداع الصناعي والارتقاء . وكيف حال استعباد المرأة دون الحب الفطري الطبيعي ، فاسفر عن العلاقات الجنسية الشاذة التي تأثر بها النفس الاثيني . ان طريقة انتاج الاشياء المادية تعين صفة الحياة العامة ، اجتماعية وسياسية وروحية . يظن الفرد انهُ قد ابرز بالمنطق والتفكير ، نظامه الفلسفي ، وشعوره الادبي ، وايمانه الديني وثباتهُ الحزبي ، وامتيازه الغني غير عالم بما لاحواله الاقتصادية المستترة من القوة في تكوين كل فكر في نفسه

موتسكيه : وكيف تطبق مذهبك على روما ؟

ماركس : كانت روما في الحقيقة شركة لاختطاف البلدان . ولم يكن في الدنيا سادة اكثر

فساداً وقوة من الرومانيين . فاذا نجم عن ذلك ؟ افلس الفلاحون تدريجاً فاشترى الاغنياء اطيانهم . واستوردوا العبيد لحرثها . فهاون هؤلاء في عملهم . فتعطلت الاطيان ، واضطرت روما ان تعتمد على الاتوات الواردة من الخارج . فزعزعتها ثورة العبيد الكبرى . واخذت التجارة بين اوربا والشرق ، تتحوّل عنها تدريجاً الى القسطنطينية . فنمت هذه وضعفت تلك

بوصويه : لا يسعك انكار ان الديانة ، كانت العامل التاريخي الاقوى في العصور الوسطى

ماركس : هذا نظر سطحي . فقد بدأت قوة الكنيسة بحاجة شعب مهدّم مستعبد ، الى التعزية والرجاء . فاينعت قوتها على الجهل والخرافات التي تصحب الفاقة والارتداد من الحياة المدنية الى الحياة الريفية . وابدت سقامها بالهبات والاوقاف مثل « هبة الملك قسطنطين » والعشور والضرائب وغيرها التي جعلت ثلثي اراضي اوروبا البور ملك الكنيسة . هذا هو اساس قوتها الاقتصادية . وهكذا ترى كل مشاهد الاجيال الوسطى لها اسبابها الاقتصادية . فالحروب الصليبية مثلا اريد بها استرداد طريق التجارة من ايدي غير المسيحيين . وكان الاحياء (العلمي والفلسفي في ايطاليا) ثمرة حشد الذهب الذي درّه على البنادقة مرور الطريق التجارية بين اوروبا والشرق ، بثغور شمالي ايطاليا . وبرز الاصلاح لما عزم امراء المانيا على الاحتفاظ بالاموال من التسرّب من جيوب رعاياهم الى خزائن الفاتيكان

بوصويه : انك تخطىء خطأ فادحاً

ماركس : وحدثت الثورة الفرنسية ، لا لأن اسرة بوربون فسدت ، ولا لانك — يا مسيو فولتير — كتبت كتابات تهكية فاتنة ، بل لانهُ في خلال ٣٠٠ سنة ظهرت طبقة البورجوي (الوسطى) الجديدة من التجار . وبلغت مستوى الارستقراطيين ارباب الاطيان . ولانهم اخيراً جمعوا ثروة اوفر ، وقوة اعظم ، مما كان لاولئك السخفاء المتحلين بالذهب ، في بلاط لويس السادس عشر . فالقوة السياسية تتبع ، عاجلاً او آجلاً القوة الاقتصادية . وقد ابان « هرنغتن » ذلك قبل سنين بقوله « يتوقف شكل الحكومة على نظام توزيع الاراضي . فاذا ملك اكثرها رجل واحد فتلك هي الحكومة الملكية . واذا تملكها افراد قلائل ، فهي الحكومة الارستقراطية . واذا تملكها افراد الشعب فهي الديموقراطية »

غرنت : انه في ذلك على جانب كبير من الحق . وقد يكون اختلال النسبة بين سكان المدن وسكان الارياف من اسباب الديموقراطية في اميركا

ماركس : ولماذا اكتشفت اميركا ؟ . الاجل المسيحية ؟ (هذا مزعم كولمبوس) كلاّ . بل لاجل الذهب . ولماذا انتزعتها انكلترا من فرنسا واسبانيا وهولندا ؟ لانها تملك من الذهب ما مكنها من بناء اسطول اعظم من اساطيلها . ولماذا ثارت الولايات المتحدة على

الحكومة الانكليزية ؟ لان شعبها لم يشأ يدفع ضرائب غير معقولة ولانه رام وضع حدّ لاستبداد الانكليز الباسطين أيديهم على الاراضي بفرمان ملكي. ولانه رغب في المتاجرة بالعبيد والحرة بدون عائق وان يبني ديونه بنقد ارخص وليم جيمس : ما هذا ؟

ماركس : اكيد يا سيدي، انت عالم بالابحاث التي قام بها مواطنك الاستاذ «بيرد» مبيناً الاسباب الاقتصادية التي قام عليها دستور اميركا كما انك عالم بديموقراطية « جفرسن ». ألم تقرأ «دانيال وبستر» ؟ قال خطيبكم البليغ هذا «كان اسلافنا في نيوانجلند في مستوى واحد باعتبار العقار. وقضت الحالة باعادة قسمة الاراضي. ويجدر بنا ان نقول ان هذا العمل قرر مستقبل حكومتهم فقد قررت شرائع الملكية الاساسية صفة منشآتهم السياسية... فالحكومة الحرة لا تلبث طويلا اذا كانت الشرائع تؤدي الى حشد الثروة في ايدي افراد قلائل وتجعل الجمهور صفر اليدين. في حال كهذه يثور الجمهور على حقوق الثروة، والا تحكمت فيه الثروة وسدت منافسة، فلا يعيش الاقتراع العام طويلاً في حيثة المساواة بالثروة فيها»

ڤولتير : ذلك كلام بليغ منكا

اناطول : وفيه خطأ واحد من نقطة نظر ماركس. وهي ادعاء الخطيب وبستر ان الشرائع تخلق التغيرات في توزيع الثروة. فاذا كان ذلك كذلك فنظريتك في طريق الضلال. لانك توقن ان الاحوال الاقتصادية تعين النظم السياسية، وان الثورة لا تفلح الا اذا كان ظهيرها جمهور قبض على اعنة القوة الاقتصادية. افلا تدحض رأيك هذه الثورة الروسية ؟

ماركس : كلا. بل انا ادحض الثورة الروسية. فاما ان يلتوي الشكل السياسي تدريجاً او ينقصف امام الحقيقة الاقتصادية. فان ثورة العمال في بلد زراعي لا بدّ من ان تنشىء عاجلا او آجلا، حكومة تتظاهر بتأييد حقوق العمال، وتكون في الحقيقة آلة في ايدي ملاك الاطيان

اناطول : اخاف أن هؤلاء البلاشفة ليسوا ماركسيين حقيقيين

ماركس : واذا اقول اني لست ماركسيًّا

ڤولتير : الا يظهر لك يا مسيو ماركس ان الدكتاتورية العسكرية قد تمكن من حفظ مركزها بقوة شديدة، ولو لم تكن ممثلة للقوة المالية ؟ ماركس : ذلك الى حين فقط

اناطول : لا ادري اذا كنت تعرف ما تدعوه، نحن المحدثين، بتحديد النسل. واظن انك لم تجربه. وهو بالنتيجة يهب للكنيسة الكاثوليكية فرصة سانحة. فانها بحكمتها القويمة تحظر تحديد النسل بين المؤمنين، وتنتظر ريثما يردُّ اليها تناقص المواليد في المانيا وأميركا. فاذا نجحت سياسة الكنيسة وقضي على آثار الاصلاح الديني وعهد الاستنارة بتحديد النسل افلا تحسب ذلك حادثاً خطيراً ؟ وانت ترى انهُ فلما يقع تحت تفسير التاريخ تفسيراً اقتصاديًّا.

فقد نحتاج الى تفسير بيولوجي للتاريخ

ماركس : انك مخطىء يا سيدي . فما هي اسباب تحديد النسل ؟ هي اسباب اقتصادية كغلاء اسعار المعيشة ، وازدحام سكان المدن ، وشرائع الاراضي كما هي عندكم ، التي تجبر الوالدين على ترك وصية بتقسيم الاراضي بين اولادهم

غرنت : ولكنك تسلم ، على كل حال ، بأن العامل الاتنولوجي راجح على العامل الاقتصادي

ماركس : كلا غرنت : كيف تعلل تغلب الشماليين على آسيا وبغاذا ؟

ماركس : بمجرد سبقهم الى الثورة الصناعية . فانظر خروج قومك الشماليين من آسيا متى صارت الصين بلداً صناعيًّا غرنت : ولكني كثيراً ما رأيت مجموعاً من الشعب في اضراب المال وفي انتخاب الرئيس ينقسمون اتنولوجيًّا لا اقتصاديًّا

ماركس : الافراد والمجموع يتحركون غالباً بدوافع غير اقتصادية ودينية واتنولوجية ووطنية تناسلية . فاذا نظرنا الى عملهم من ناحية اثره في توجيه التاريخ وجدنا ان الزعماء رجال يشعرون بمصلحة الاقتصادية شعوراً تامًّا . هل كان السياسيون ، الذين يشوا بالجنود الى ساحات القتال ، بالخطب الحربية والموسيقى ، خالين من المحرك الاقتصادي ؟ يقولون ان كولمبوس أمّ الهند ليجلب للبابا مئتين جديداً . ذلك ممكن كل الامكان ، مع انه بعيد عن الاحتمال ان يكون في رأس ذلك الشيخ فكر كهذا . ولكن اتظن ان فرديناند وايزابلا امدّاه بالمال لاسباب كهذه ؟ فالافراد قد يعملون لحركات غير اقتصادية ، فيضحون بأنفسهم لاجل اولادهم وذويهم وآلهتهم ، ولكن هذه الافعال لا خطر لها في قيام الامم وهبوطها

وليم جيمس : يسرني ان اسمع ذلك . فقد كنت اعتقد ان للقوات الادبية اثراً في التاريخ ، كمقاومة النخاسة بزعامة «ولبرفورس» و«جريسن»

ماركس : لا قوة ادبية في التاريخ . فالعوامل الاقتصادية كامنة وراء كل حادثة عظيمة . ان جريسن لم يتقدم في حملته على النخاسة الا اقتصر على الدعوة الادبية فقط ولما اعلن لنكلن تحرير العبيد كان ذلك تدبيراً حربيًّا يراد به اضعاف الجنوبيين . وقد قال صراحة انه كان يتركهم عبيداً لو ادى ذلك الى السلم . فأراد الجنوب الانفصال لان الضرائب اضرت به بعد ما فقد كل امل في احراز الاكثرية في الكنغرس . وأراد الشمال ان يظل الجنوب سوقاً لمعامله ومصدراً للمواد الاولية . وكانت الدعوى الروحية من الجانبين ، كالتستر بورق التين . فالفكرة الروحية في كل حادثة تاريخية ليست الا حاجة مادية تتحمل تعبيراً نفسيًّا خادعاً هو الرغبة الادبية اناطول : اتقول ذلك في اغراض الاشتراكية ؟

ماركس : نعم اناطول : وا أسفاه

منا نباتر